الورقة التحليلية

ظواهر الغلوّ والتطرّف

• آثارها ومآلاتها •

الحوار

مركز الحوار السوري

Syrian Dialogue Center

جدول المحتويات:

على سبيل التقديم:.....2

ظواهر الغلو والتطرّف، مآلاتها وآثارها:.....2

المحور الأوّل: "الغلوّ والتطرُّف في السياق العراقيّ وامتداد تأثيراته السابقة والمستقبلية":.....3

المحورُ الثاني: "نظرات في مآلات وتحوّلات خطاب الغلو".....6

ملامح الغلوّ المعاصر:.....7

الغلوّ المعاصر، إلى أين؟.....8

المحور الثالث: الآثار الاجتماعيَّة لفكر الغلوّ والتَّطرُّف في السِّياق السُّوريِّ، "مناطق الشَّمال المحرَّرة نموذجاً":.....9

مداخلات الحضور:..... 13

ردود من أصحاب الأوراق:..... 16

على سبيل التقديم:

حرص مركز الحوار السوريّ على دراسة ظواهر التطرّف والغلو منذ انطلاقته، فعقد الندوات النقاشيّة والجلسات الحواريّة التي تبحث أسس الظاهرة وآثارها وسُبل تفكيكها، وذلك بالتعاون مع عدد من العلماء الشرعيين والعسكريين والباحثين وقادة الرأي المؤثرين، فأطلق مسارًا تراكميًّا في دراسة الغلوّ والتطرُّف، ابتدأه المركز بالندوات التشاورية منذ العام2015، ثم مؤخراً بندوة "نحو مقاربة نموذجيّة لمواجهة خطاب الغلوّ والتطرّف في السياق السوريّ"[1]،حيث ناقشت الندوة ورقات ثلاث: ركّزت الأولى على دور إنشاء مرجعيّة شرعيّة سوريّة لمناقشة خطاب التطرّف ومنعه، وإبراز دور العلماء المعتدلين وأهميتهم في مواجهة هذا الخطاب، إضافة إلى استعراض الكيفيّات التي تمكّن المرجعيّات الشرعيّة والفكريّة من مكافحة هذا الفكر ونقض مقولات أصحابه، بينما ركّزت الثانية على معايير تمييز جماعات الغلوّ عن الجماعات الأخرى، وذلك من خلال قياس مدى رفض الغلو الدينيّ والسياسيّ، ودراسة نموذجية لمراجعات وتحولات حركة أحرار الشام الإسلامية، أما الورقة الثالثة فكانت في عرض تجربة بعض الفصائل المسلّحة في التعامل مع الغلوّ وتنظيماته على الأرض السورية -سلبًا وإيجابًا- سواء من حيث التعامل المشترك أو المواجهة العسكريّة.

وقد ناقش المركز في ندوته الثانية مستقبل فكر الغلوّ بعد "داعش" وآليّات التعامل معه، وذلك بعد انحسار سلطة التنظيم على الأرض، وكثرة الحديث عن عودةٍ جديدة له بشكلٍ جديد، وذلك بمناقشة مجموعة من النقاط تمحورت حول مآلات التنظيم الآنيّة والمستقبليّة، ودور الميليشيات الطائفيّة في تنمية ظهور التنظيمات المتطرّفة، وعودة "داعش" إلى نموذجه القديم الكامن في مساحات واسعة ممتدة بين العراق وسورية، وانتهاء ظاهرة جذب التنظيم للشباب رغم عدم القضاء عليه بشكلٍ مبرم، إضافة على استثمار فكر الغلوّ والتطرّف لدعم تنظيمات معيّنة، وطرق مكافحة الفكر الغالي وتفكيك بناه الإقليمية والعالميّة، ومعالجة الآثار الاجتماعية والثقافية التي خلّفتها تنظيمات الغلو.

ظواهر الغلو والتطرّف، مآلاتها وآثارها:

حاولت الندوة الثالثة -التي يتحدّث التقرير عنها- التركيز على ثلاث سياقات لم تحظَ بالتفصيل الكامل في الجلسات السابقة، وذلك من خلال تناول البعد الفكري للغلو والتطرف، إضافة إلى البعد الاجتماعي له، ومن ثمّ تناول البعد المقارَن بين الحالة السورية والحالات الأخرى بغية القياس والفهم المتوازن للتطرف وأحواله وآثاره في مختلف المناطق التي ظهر فيها، ومن ثمّ فقد قُدّم في هذه الندوة ثلاث ورقات، كانت الورقة الأولى للأستاذ د. مهدي الهلالي، بعنوان: "**ظهور الغلوّ والتطرّف في الحالة العراقيّة وامتداد تأثيراته السابقة والمستقبلية**"، أما الورقة الثانية فكانت بعنوان **نظرات في مآلات وتحوّلات خطاب الغلوّ** للأستاذ د. عماد الدين خيتي، أما الورقة الثالثة فقد قدّمتها الأستاذة د. رغداء زيدان، بعنوان **الآثار الاجتماعيَّة لفكر الغلوّ والتَّطرُّف في السِّياق السُّوريّ، مناطق الشَّمال المحرَّرة نموذجاً**.

---

[1] ينظر على سبيل المثال، الندوة التشاورية الرابعة في العام 2014، والتي حضرها 60 شخصاً من مختلف الأطياف، http://sydialogue.org/ar/24، ومؤخراً، قام مركز الحوار السوري، وبالشراكة مع "مؤسسة قرطبة بجنيف" بإقامة ندوة حوارية بعنوان: " نحو مقاربة نموذجية لمواجهة خطاب الغلو والتطرف في السياق السوري من خلال التجارب والدروس المستفادة" في مدينة استنبول، يوم السبت 22 ربيع الآخرة 1440هـ، الموافق لـ 12/29/ 2018م، http://www.sydialogue.org/ar/news/60

المحور الأوّل: "الغلوّ والتطرُّف في السياق العراقيّ وامتداد تأثيراته السابقة والمستقبلية":

في بداية عرض ورقته نوّه د. مهدي إلى وجوب الاتفاق على ثلاث نقاط: أولها: أن الغلو الذي نبحثه ليس وليد اللحظة أو السنوات الأخيرة، وإنما هو حالة موجودة في مختلف الأزمنة والأمكنة، واستشهد لذلك بحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن تكاثر ظهور الغلاة: [كلّما خَرَجَ لَهُم قَرْنٌ قُطِع][2]، أما النقطة الثانية فهي أن الغلوّ ليس علامةً خاصة بفئة معيّنة من الناس أو منطقة دون أخرى، إلا أنّ الغلوّ قد يختلف في حدته بين منطقة وأخرى، ويعود ذلك –برأيه- إلى الظروف الاجتماعية والسياسية في المنطقة التي ينتشر فيها، أما النقطة الثالثة: فهي أن الغلو لا يقتصر على فكر الخوارج والتنظيمات المتطرفة، وإنما يمتدّ للغلو في المذاهب والمدارس الأخرى، ويمتد للغلو عند الجماعات الأخرى من غير المسلمين.

وقد حاولت الورقة عرض جوانب **ظاهرة الغلوّ في السياق العراقيّ** بحسب التسلسل الآتي: فقد ابتدأت ببيان **الأصناف المقاومة للاحتلال العسكري الأمريكي وتطوّر تنظيماتها**، ثم انعطفت إثر ذلك إلى بحث **آثار الغلو في إفشال المشروع الوطني للمقاومة في العراق**، ثم **دور تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" في إفشال الاحتجاجات السنية** في حقبة المالكي الأخيرة، إضافة إلى تعرُّضها لعلاقة **رجالات حزب البعث والنظام السابق بتنظيم الدولة، ومدى حقيقة وجود حاضنة شعبية لتنظيم الدولة في الأمس واليوم**، لتنطلق من ذلك إلى عَرض **الوضع الحالي للتنظيم عسكريًّا وماليًّا وشعبيًّا**، وقد ختم د. مهدي ورقته بمحاولة الإجابة عن سؤال: **ما التأثير المتوقع للحالة العراقية في الدعوة لفكر التطرف والغلو في البلدان المجاورة والعالم؟**

في النقطة الأولى أشار **د. مهدي** إلى أن المقاومين للاحتلال العراقي كانوا على صنفين: أولهما: مقاومون عملوا في أجهزة النظام العراقي السابق العسكرية والأمنية، وثانيهما: أناس من أصناف مختلفة ممّن لم يعمل في النظام السابق، اندفعوا بحميّتهم الدينيّة والوطنيّة لمقاومة الاحتلال الأجنبيّ دون ناظم حركيّ أو سياسيّ، ليبتدئ ظهور التطرّف مع تنظيمات "المجاهدين" القادمين من خارج العراق، سواء ممن كان ذا خبرة في ساحات القتال الجهادية السابقة كأبي مصعب الزرقاوي وأبي أنس الشامي، أو دون تجربة سابقة، وقد تسمّوا باسم "المهاجرين" واستمالوا العناصر المحلّية بأساليب متعددة، كتنظيمهم المتماسك وقدرتهم على تنفيذ العمليّات النوعيّة واستخدام الإعلام بشكل كثيف واحترافي، إضافة إلى قدرتهم على تحصيل التمويل، كما قدّم الإعلام الآخر "العربي والغربي" التسويق لها من خلال التركيز المستمرّ على دور هذه المجموعات وعمليّاتها، وبمرور الوقت بسطت هذه التنظيمات سيطرتها على الساحة، حيث تحوّلت أسلحتهم إلى صدور العراقيين الذين رفضوا منهجيّتهم، إلا أنهم تغلّبوا على المقاومة، وأجبروا العراقيين على تحويل عملهم المقاوم إلى مشروع إيديولوجي تحت قيادتهم.

أمّا **النقطة الثانية**، فيرى د. مهدي أنّ الغلو كان السبب الأهم في إفشال المشروع العراقي المقاوم وذلك من خلال:

---

[2] من حديث ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَنْشَأُ نَشْءٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ) قَالَ ابْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ) أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً (حَتَّى يَخْرُجَ فِي عِرَاضِهِمُ الدَّجَّالُ)، سنن ابن ماجه، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، باب في ذكر الخوارج، رقم 174، (1/ 120).

- استهداف التنظيمات المتطرفة للجماعات المقاومة، فضعفت فصائل كبيرة وقضي على أخرى ممّا أدى إلى رجحان كفّة الغلاة.
- ارتكاب جرائم متنوعة من قبل الغلاة بحق أهل السنة، إضافة إلى الدمار الذي جلبوه للمناطق السنية بسياستهم الفاشلة مما تسبّب بخسارة الحاضنة الشعبية.
- استفزاز الأطراف الدوليّة بخطابهم العنيف ودفعهم الأعداء لتعبئة الحشود والميليشيات لمقاتلة الحواضن السنّية.
- استنزاف الطاقات الشابّة والموارد العراقيّة، فقد كانت مشروعات الغلو سببًا في إبادة آلافٍ من الشباب العراقي الذين انضووا تحت قيادتهم.

وذكر د. مهدي أنّ رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي كان قد عمد إلى تفتيت قوّة المظاهرات الشعبية في المحافظات السنية من خلال دفع المتظاهرين لحمل السلاح ومواجهة أجهزة الحكم، إضافة إلى إفساح المجال للغلاة لركوب موجة التظاهر ووضعها تحت سيطرتها، وقد نجح في تحقيق المواجهة في نهاية المطاف، حيث اندفع الأهالي لحمل السلاح بهدف الدفاع عن أنفسهم أمام آلة القمع، إضافة إلى فسح المجال أمام تنظيم "داعش" للدخول إلى المدن التي خرجت عن سيطرة القوات الحكومية ووقعت تحت سيطرة العشائر والأهالي المنتفضين، فكانت أرتال المتطرفين تمرُّ إلى الرمادي والفلوجة على الرغم من محاصرة الجيش الحكوميّ لها، فكيف انتقلت من الصحراء الغربية إليها؟.

وقد منع تنظيم الدولة من ممارسة أي نشاط مقاوم إلا ضمن صفوفه وانتهج سياسة محاربة الجماعات الأخرى أولاً، وتحقّق هدف حكومة المالكي وإيران بطيّ صفحة المظالم السنية وتغيير بوصلة المعركة لتكون مع تنظيم مجرَّم دوليًّا، وهو ما حصل بتشكيل التحالف ضد تنظيم الدولة إضافة إلى التحشيد الداخلي الذي سوّغت له فتوى "الجهاد الكفائي"، حيث تعبّأت قوى المكون الشيعي خلفها، فكانت ميليشيا "الحشد الشعبي" الذي ارتكب جرائم طائفية بحق المكون العربي السني.

أما **النقطة الرابعة** فقد أشار د. مهدي إلى انخراط عديد من الناس في صفوف الجماعات المتطرفة، حيث حرص تنظيم القاعدة على استقطاب الكفاءات العسكرية والأمنية التي عملت في أجهزة النظام السابق، نظرًا لخبرتها في العمل المنظّم بغية الاستفادة من خبراتهم في الانتقال من حالة التنظيم إلى حالة الدولة، وليس بالضرورة أن تكون هذه العناصر مؤدلجة بشعارات البعث لتدير هذه الجماعات بتوجيهاته أو تطبع التنظيمات التي انتسبت إليها بالغلو المقتبس من حقبة البعث، إلا أنه من الممكن أن تكون هذه العناصر شديدة في ممارساتها الأمنية والعسكرية بناء على ما اعتادته في أيام النظام السابق.

أما **النقطة الخامسة** فقد أكّدت الورقة على أن التنظيمات المتطرفة بما فيها تنظيم الدولة لم تحصل على التأييد الشعبي يومًا، وأن حالات تأييدهم كانت منبعثة من الرغبة العارمة في التخلص من الحكومة الطائفيّة، ولم تكن مرتبطة بالقناعات الفكرية أو الشخصية شعبيًّا، أما على مستوى الأفراد، فإن بعض الشباب غير المحصّن أمام الأفكار المتطرفة تحرّك للانضمام إلى هذه التنظيمات في ظل الحرب العقائدية التي شُنّت على العراقيين، ولذا وقع الشباب في حبال هذه التنظيمات، خاصة في غياب الحاضنة التي تحتوي هذه الفئة من الشباب، وتعينها على الدفاع عن نفسها ومجتمعها ومعتقدها، ولذا فإن التنظيم

الآن يلجأ لأسلوب العصا والجزرة في المناطق الرخوة أمنيًّا للحصول على مساحة للحركة أو الدعم، وسيلجأ إلى المناطق النائية غير المؤمنة من قبل أي جهة أخرى، وهذه المناطق كثيرة ومترامية الأطراف، وفي آخر المطاف سيضطر الأهالي غالباً إلى القبول مرة أخرى بوجود عناصر التنظيم خوفًا من عملياته الانتقامية، ولعدم وجود أي قوة أخرى تحميهم منه. أما النقطة التي تناولت **الوضع الحالي للتنظيم عسكريًّا وماليًّا وشعبيًّا** فقد ركزت على التفاصيل الآتية:

- يجتهد التنظيم الآن لاحتواء الهزيمة والخسارة الميدانية، ويعتمد على ذلك بخبرته في التعامل مع هذه الظروف حيث مر بها سابقًا، وقد أعدّت القيادة خطّة للاختباء والتلاشي المرحليّ في المناطق الوعرة والصحراوية.
- الانتقال من مرحلة الاختفاء إلى حرب الكرّ والفرّ، حيث تشهدُ ديالى وصلاح الدين والموصل ومناطق غرب كركوك ومناطق شمال شرق سوريا عمليات متكررة للتنظيم.
- عمد التنظيم إلى إعادة أعداد كبيرة من عناصره إلى المدن السنية بعد تحريرها من قبضته، ومن وسائل إعادتهم دفعهم للانضمام إلى الحشد الشعبي الطائفي والقوات الأمنية، وهم بذلك يمثلون خلايا نائمة يطلقها التنظيم لاحقًا.
- أما من الناحية المالية فقد ذكر الباحث أن التنظيم يمتلك الأموال التي تكفيه لإدارة هذه المرحلة التي لا تتطلب أموالًا كثيرةً في الأصل، كما أن التنظيم عاد إلى ممارسة الابتزاز لجمع الأموال عبر الزكاة والضرائب.
- أما الوضع الشعبي له فإنّ التنظيم يستغلّ حالة النقمة التي تشهدها المناطق السنية بسبب الظلم والتغيير الديمغرافي الذي يتعرضون له، إضافة إلى استثماره فشل الساسة السنّة في المحافل وعدم نجاحهم في تحقيق أيّ مصالح للشعب العراقي والسوري، ولذا قد يستطيع التنظيم مرةً أخرى اختراق الحاضنة السنّية لتأييده مقارنة بما تمارسه الميلشيات الموالية لإيران بحقهم.
- ما زال باستطاعة التنظيم جذب أعداد من المقاتلين من البلدان المجاورة على الرغم من الهجمة عليه في العراق وسورية، إلا أن أعداءه يحتاجون بقاءه جزئيًّا لاسيّما في استخدامه وسيلة ضغطٍ في التفاوض مع الأطراف الأخرى.

أما النقطة الأخيرة المتعلقة بالتأثير **المتوقع للحالة العراقية في الدعوة لفكر التطرف والغلو في البلدان المجاورة والعالم**، فقد أشار د. مهدي إلى أن التطرف ليس مرتبطًا بشعب معيّن في الحالة الطبيعيّة، إلا أن نشره إن صار مرتبطًا بإرادة دولٍ كبرى فالأمر مختلف، حيث إن جرائم التغيير الديمغرافي في سورية والعراق ستدفع إلى النقمة التي قد تغذي الغلوّ الذي ستستثمره التنظيمات المتطرفة.

المحورُ الثاني: "نظرات في مآلات وتحوّلات خطاب الغلو"

أشار د. عماد الدين خيتي[3] إلى ثلاث نقاط تأسيسيّة في ورقته، أولها: أن الغلو المبحوث هو الغلو التكفيري دون التعرض لأنواع الغلوّ الأخرى، ثانيها: أن الورقة موجّهة لرصد عموميات الغلو دون الحديث المفصّل عن جزئيات الواقع، ثالثها: أن الورقة مبنية على الحوارات والأوراق السابقة المقدّمة في فعاليات المركز.

وقد تمركزت ورقة د. عماد الدين خيتي آنفة الذكر حول التعريف بالخوراج والغلاة[4] وبيان أهم أفكارهم وسماتهم في سياق التاريخ الماضي و الواقع الحاضر، كما أفرد مسارًا خاصًّا لفهم نقاط التحوّل التي مرّت بها جماعات الغلاة في العصر الحالي وأهمّ ملامحها التي افترقت بها عن الغلاة في الماضي، مثل عناية المعاصرين منهم بالتدوين والتأليف، إضافة إلى تأثّر كثير منهم بالمذاهب الأخرى ثم إلباسها لبوس الإسلام، إضافة إلى انتشار الكذب فيهم منهجًا للتعامل، وتقديسهم زعماءهم وقادتهم، وتعلّقهم بالمنامات وأحاديث ملاحم آخر الزمان، وظهور مبدأ النفعية والذرائعية فيهم، واحتواؤهم من قبل الأنظمة بهدف العمل الوظيفي لها، لينهي ورقته بتقديم استشراف عن مآلات الغلو وجماعاته في المستقبل.

وقد أكد "د. خيتي" أن النصوص الشرعية التي تحدثت عن الخوارج تعرض للمرء صورتين متناقضتين، فتصف الأولى الحرص المحموم للخوارج لنصرة الدين وإقامة شرعه، ورمي كل متهاون-بوجهة نظرهم- في ذلك بالكفر واستحلال دمه، مثل الأحاديث التي تصف عبادتهم وقراءتهم للقرآن، وما نقلته كتب الفرق من شجاعتهم وحميتهم في الجهاد وتغنيهم بالموت في سبيل الله، بينما نرى في نصوص أخرى صورة تتحدث عن انضوائهم في رايات الكفر والإلحاد والدخول تحت راية الدجّال، فكيف يُتَقَبَّلُ ورود هذا التناقض عنهم، بحيث إنهم يرفضون مبادرات المسلمين ويتبعون مبادرة الدجال مدّعي الألوهيّة!.

وفي معرض حديثه عن صفات الخوارج والغلاة في الماضي يذكر د.عماد الدين خيتي أن الحركات الغالية في التاريخ تميّزت بسطحيتّها الفكرية وشدّتها العسكرية في قتال مخالفيها، فقد اشتهر عنهم تكفيرهم الصحابة رضي الله عنهم في مسألة التحكيم، وما ظهر بعد ذلك في مسائل تكفير مرتكب الكبيرة مرتبط بقضيتهم الأولى، كما أنه لم يعهَد عنه البراعة في العلم أو الفكر فقد ذكر الإمام ابن تيميّة أنه "لم يقف لهم على مصنّف يبين أقوالهم مثلما فعلت المذاهب الأخرى" على الرغم من كثرة اطلاعه وبحثه، وقد أكّد ابن النديم في الفهرست أن هؤلاء "قوم كر وليس جميعهم صنّف الكتب ولعل من لا نعرف له كتابًا قد صنّف ولم يصل إلينا" كما تمثّل مشروعهم السياسي سابقا بالخروج على كل حاكم يصفونه بالظلم أو الكفر، وكان من طبعهم التفرق والانقسام حتى بعد نجاحهم في تأسيس ممالك وإمارات تحت حكمهم في بعض الأماكن.

أما الغلاة المعاصرون فيذكر د. عماد أنهم يختلفون في هدفهم عن السابقين، فهم لا يهدفون إلى تغيير الحاكم فقط بدعوى الكفر، وإنما يسعون إلى:

---

[3] أكاديمي سوري، يحمل شهادة الدكتوراة في الشريعة الإسلامية، ويرأس المكتب العلمي في هيئة الشام الإسلامية

[4] يذكر د. عماد أنه قد زاوج في الورقة في استخدام مصطلحي الخوارج والغلاة أثناء الحديث عن الغلو وجماعاته، وأشار أنه بالرغم من الفرق بينهما على العموم من حيث إن كل خارجي مغالٍ والعكس غير صحيح، فقد راعت الورقة هذا الفرق في الاستخدام والإطلاق، ورجّحت استخدام أحدهما في بعض المواضع بما يتناسب مع السياق.

- تغيير المجتمع وفكره وهويته بدعوى أن المجتمعات الإسلاميّة خرجت عن فحوى الإسلام وشرعه، ويبدأ هذا السعي بالانقلاب على الحكم وإقامة جماعات تنظيمية تؤمن بمنهجهم ثم إسقاط "المشاريع الصليبية" المتمثلة بالنظام العالمي.
- الانتقال من مشروع الخوارج القائم على بعض مسائل في التكفير إلى مشروع كامل قائم على أسس متطرفة تستبدل كل ما هو موجود في العالم الإسلامي وفكره مما لا يؤمنون به.
- استبدال العلماء في العالم الإسلامي بعلماء منهم ينظّرون لهم ويفتون لهم.
- وقد أدّى ذلك –برأيه- إلى العمل على "إنشاء جماعة الحق" التي تمثل آراءهم، إضافة إلى حصر الصحّة والشرعية الدينية بتصرفاتهم وأقوالهم وأفعالهم، فلا يقبلون بمحاكم إسلاميّة أو مشاريع ثوريّة لا تكون تحت إدارتهم.

ملامح الغلوّ المعاصر:

أفردت الورقة مساحة واسعة لبيان أهم ملامح الغلو المعاصر وأمكنة الاتفاق والافتراق فيما بينها وبين الغلاة في التاريخ، فخلصت إلى أن المشتركات في الغلوّ بين "الماضي والمعاصر" تتمثل في النقاط التالية:

- استباحة دماء المسلمين وقتلهم بعد تكفيرهم بغير وجه حق.
- الخروج المستمر على جماعة المسلمين وأحكام الدين الواضحة.

ويضرب لذلك مثالاً بجبهة النصرة التي غيرت من سلوكها ومرتكزاتها مرات كثيرة بهدف البقاء والاستمرار، إلا أنها لم تتخلّ عن استباحة دماء المسلمين بغير وجه حق.

ويضيف أن أهمّ علامات الغلاة المعاصرين تتمثّل بالآتي:

1. **العناية بالتدوين والتأليف**، حيث تنشط حركة الكتابة والنشر والدعاية لأفكارهم بأشكال متباينة وكبيرة، كالمطويات والكتب والفيديوهات والنشرات الصوتية، وغير ذلك، وقد أدى ذلك إلى تسرّب الكثير من أفكارهم إلى الشباب غير المحصّن ضدّ التطرُّف، إضافة إلى سهولة جمع الأنصار وتثقيفهم في مناطق متعددة من العالم على الرغم من التباعد الجغرافي بينها.
2. **تأثّر كثير منهم بالمذاهب الأخرى ثم إلباسها لبوس الإسلام**، كما نرى في تأثرهم –مثلاً- بالنموذج الشيوعي للوصول إلى الحكم وبناء الدولة "الإسلامية" التي يؤمنون بها، وهو مما فصّله كتاب "إدارة التوحُّش"، وتأثرهم بالفكر الشيعي في ادّعاء المظلومية الدائمة، واتباع مبدأ التقية والباطنيّة، حيث بدأت لديهم بدعوى السريّة ثم ما لبثت أن تحوّلت إلى استحلال الكذب باسم المصلحة، وهذان النموذجان يؤكدان إمكان تأثر الغلاة بالنماذج الفكرية المختلفة ما كانت بعيدة عن أهل السنّة والإسلام الحق.
3. **انتشار الكذب منهجًا في التعامل باسم المصلحة.**
4. **تقديس قادتهم وزعمائهم**، وهو مما لا يعرف عن الخوارج في الماضي، إلا أن غلاة الحاضر لما أسقطوا علماء المسلمين وبنَوا لأنفسهم مرجعيّاتهم الخاصة، فكان لا بد من غرس مقولاتها بتعظيمها لدى الأتباع، ولا يتأتى ذلك إلا بالمدح الدائم لهم والثناء المستمر عليهم.

5. **انتشار التعلّق بالمنامات فيما بينهم واعتمادهم المطلق على أحاديث الملاحم في آخر الزمان**، وهذا راجع برأيه إلى سببين: أولهما: تعظيم النفس والاغترار بمكانتها العظيمة عند الله، خاصة مع ادعائهم بأنهم الطائفة الظاهرة على الحق المنصورة في آخر الزمان، أما الثاني: فعائد إلى الضغط النفسي الذي يعيشه الغلاة جراء ملاحقة الأجهزة الأمنية لهم باستمرار، فاستقرّ لديهم أنهم المقصودون بأهل الحق في أحاديث آخر الزمان.
6. **استثمارهم مبدأ النفعية والذرائعية لتحقيق مآربهم** وأهدافهم، ويظهر ذلك جليًّا في اعتقادهم بما سموه **مبدأ الولاء والبراء** حيث استغلّوه للحكم من خلاله على كل مخالف لهم بالكفر سواء كان من الجماعات الجهادية أو السياسية أو المذهبية بدعاوى شتّى، بينما يرخّصون لأنفسهم تجاوز مبادئهم كلّها في سبيل الحفاظ على جماعاتهم وتنظيماتهم ولو اضطروا للجلوس مع الأعداء والالتزام بالاتفاقات التي يبرمونها معهم في التفاوض، والأمثلة على ذلك كثيرة كاتفاق داعش والنظام السوري بتوريد النفط إليه من حقول النفط التي كانت تحت أيديهم. ومن الأمثلة على ذلك تغيُّر تعامل تنظيم القاعدة مع الشعوب العربية في حقبة الربيع العربي، فبينما كانت تنصّ أدبياتها على الطعن بها، إذ بها تنتقل إلى كيل المديح لهم بعد الثورات بغية ركوب الموجة واستغلالها لإتمام مشروعهم.
7. **احتواؤهم من قبل الأنظمة والتصالح معها وقبول التوظيف لأجلها**، ويمثّل لذلك باتفاق تنظيم القاعدة مع إيران، حيث انطلقت منها إلى البلاد العربية لاستهدافها، ومثل تعاون تنظيم القاعدة في اليمن مع علي عبد الله صالح في المسائل الأمنيّة، واحتواء الأردن لعدد لا بأس به من رؤوس الغلاة والتزامهم بقوانيه.

الغلوّ المعاصر، إلى أين؟

تشير الورقة إلى وجود افتراضات مستقبليّة متعددة قد نراها في مآلات التطرف، كما في الاتي:

أوّلها: انتقال عدد من الغلاة إلى ميدان الاعتدال ورفض مقولاتهم السابقة والتراجع عنها، إلا أنّ هذا لا يشي بانفراط عقد الغلاة حيث يشتهَر عنهم انقسامهم المتواصل وتفرقهم الدائم، كما أن توبة طرف من الغلو لا يعني وسطيّته التامّة.

ثانيها: زيادة الانحراف في الغلو، وهو ما تؤكّده الأفكار شديدة الانحراف التي تظهر تباعاً في تاريخ هذه التيارات، فربما يؤدي ذلك إلى ظهور أفكارٍ أشد انحرافًا أو ظهور تيّارات هجينة تأخذ من أفكار الغلو الخارجيّ والفرق الأخرى.

ثالثها: زيادة توظيف الأنظمة والاستخبارات لها، بحيث تصبح هذه الجماعات ومنظروها من حاشية تلك الأنظمة أو تابعيها بطريقة أو أخرى.

ويختم د. عماد الدين خيتي بأنه يجب العكوف على رصد هذه الجماعات ومتابعة أفكارها ودراسة العوامل المؤثرة فيها وإن بدت أفكارهم وتنظيماتهم خاملةً، والعمل على فهم أهدافها المستقبلية وإعداد الخطط لمواجهتها.

المحور الثالث: الآثار الاجتماعيَّة لفكر الغلوّ والتَّطرُّف في السِّياق السُّوريّ، "مناطق الشَّمال المحرَّرة نموذجاً":

سارت د. رغداء زيدان[5] في عرض ورقتها ضمن الخطوات الآتية:

قدّمت أوّلاً مدخلًا معرفيًّا يبحث تعريف الغلوّ والتَّطرُّف، وأسباب انتشاره في سورية، ثم ركّزت على تقديم وصفٍ واقعيٍّ لانتشار التطرّف ومظاهره في الشَّمال السُّوريّ –أي إدلب ومناطق درع الفرات وغصن الزيتون-، إضافة إلى تبيين الآثار الاجتماعيَّة للغلوّ وفكره في الشّمال السّوريّ، لتختم ورقتها بتقديم توصياتٍ عمليّة ومخرجاتٍ معرفيّة متعلّقة بموضوع البحث، وتظهر أهميّة الدراسة من خلال اعتماد د. رغداء على المقابلات المباشرة الشخصيّة، إضافة إلى قيامها باستبيانات خاصّة بالنساء القاطنات في منطقة الدراسة.

أ. محور التعريف:

تؤكّد الباحثة على ضرورة التفريق بين الغلو والتطرّف، نظرًا لتكرار استعمالهما مترادفين، إلا أنّ الغلوّ في تعريفه خروجٌ عن الاعتدال في الدّين وتجاوزه، بينما يعرَّف التَّطرُّف بتعريفات عديدة ترتبط أغلبها بمفاهيم الإرهاب والعنف التي تشكّل عقل الغربي في مفهومه عن الإسلام والمسلمين دون إعطاء هذا المفهوم حقّه من البحث والتمحيص.

وتعرّف الباحثة الغلوّ اجتماعيًّا بأنّه حالة سلوكيّة تنتج عن اعتقادات فكريَّة، فتنسب إلى أسلوب الفرد في تصرّفاته الشخصيّة ويكون الهدف من ورائها التّقرّب إلى الله بطرق عدّة مثل الزيادة غير المشروعة في التَّعبُّد ومظاهره، وترى ههنا أن التّطرّف حالة فكريَّة تنعكس على تعامل الفرد مع الآخرين، وليس ضروريًّا أن ينبعث عن مبدأٍ تعبُّديّ، فقد يكون بسبب البعد عن الفهم الصَّحيح من حيث الزيادة أو النقص، وقد ينطلق ليستخدم العنف لتغيير ما يراه مخالفًا للفهم الذي استقرّ عليه صاحبه.

ب. أسباب الغلو والتطرّف:

ذكرت الباحثة أن المجتمع السوريّ لم يعرف التطرّف بشكل عامّ قبل الثورة إلا أن العديد من **الأسباب التي دفعت لظهور فكر الغلوّ والتطرّف وانتشارهما في سورية** أحدثت خللًا في هذا النسيج المعتدل، أبرزها الآتي:

1. الردّ العنيف من قبل النظام على السوريين المطالبين بالحرية والكرامة والعدالة، وإحساسهم بالظلم جرّاء تعمّد المجتمع الدوليّ عدم نصرة الشعب السوري وتجاهل جرائم النظام بحقّه، إضافةً إلى تدخُّل حلفاء النظام وبعض الدول الأخرى في الحرب السوريّة لتحقيق مصالحها ودعم فصائل دينيّة متطرّفة -سواء مع النظام أو ضدّه- بغض النظر عن الأفعال التي تقوم بها.
2. الظروف الدولية التي سمحت للكيانات المتطرفة بالنموّ والانتشار في سوريّة والمنطقة.
3. الجهل الدينيّ لدى شريحة واسعة من الشباب إضافة إلى تأخر/تردّد العلماء في بيان مخاطر الغلوّ وحقيقته وآثاره، مما سهّل على التنظيمات المتطرفة مهمّة جذب عناصر كثيرة لصفوفه، وقد

[5] أكاديمية سورية متخصصة في الدراسات الإسلاميّة.

توازى ذلك مع تكرُّر ما يمكن تسميته بـ "سقوط القدوة" اجتماعيًّا ودينيًّا في أعين الناس جراء تخاذلهم عن نصرة الثورة واتخاذ موقف حاسمٍ من النظام السوري وجرائمه.

4. الحاجة للتماهي مع الواقع لأسباب أمنيّة أو نفسيّة خاصّة لأولئك الذين يقطنون في أماكن سيطرة التنظيمات المتطرّفة.

ج. واقع التطرُّف ومظاهرُه في الشمال السوري:

تشير الباحثة في وصفها لواقع التطرُّف والغلوّ ومظاهره في الشمال السوري، إلى عدّة نقاط أساسيّة يجب التنبُّه إليها، لعل من أهمّها:

أوّلًا: اختلاف الواقع التنظيمي والخدمي والمعيشي بين مناطق درع الفرات وغصن الزيتون وبين مناطق سيطرة "هيئة تحرير الشام" مما ينعكس بطبيعة الحال على حالة المجتمع وثقافته في تلك المناطق.

ثانيًا: وجود آلاف من المهجّرين من مناطق مختلفة في سوريّة في الشمال السوريّ مما جعل واقعهم الاجتماعي مختلفًا عن الأحوال التي كانوا عليها قبل التهجير.

ثالثًا: تردّي الأحوال الاقتصادية في هذه المناطق وانتشار البطالة والفقر مع استمرار الحرب وعدم الاستقرار، مما انعكس سلبًا على حالة التكافل والعلاقات الاجتماعية بين الناس.

أما أهمّ المظاهر التي يمكن رصدها في انتشار فكر الغلو والتطرّف فهي عديدة، منها:

1. التساهل في تكفير الناس بناء على تصرُّفات معيّنة أو مقولات كانت منتشرة فيما مضى وباتت من الممنوعات الآن، وكتكفير بعض رموز المعارضة السورية نظرًا لموقفهم من التفاوض أو لأسباب أخرى.
2. انتشار الكتابات النابعة من الفكر المتطرّف، ومن أشهرها عبارة "الديمقراطية كفر، والحكم لله" .
3. انتشار ما يعرف بـ الحسبة الإيمانية أو سواعد الخير في مناطق "هيئة تحرير الشام" حيث تتابع مدى التزام النّساء بالحجاب واللباس الشّرعيّ، كما أنها تلاحق محلّات بيع الدخّان والأغاني، وتراقب الاختلاط بين الجنسين، وقد عبّر كثير من الناس عن استيائهم من تصرفات "الحسبة" واعتبروا أنها لا تفهم الدين وتسيء إليه.
4. مهاجمة المرجعيّات الدينيّة التي لم تنخرط في القتال، حيث يوصَفون بالخونة ويدعَى لعدم الأخذ بفتاويهم.
5. تأثّر النسوة اللاتي تزوّجن بعناصر من تنظيم الدولة بالأفكار المتطرفة التي حملها أزواجهنّ قبيل انفصالهم عنهن أو هربهم أو وفاتهم، وينقلن هذه الأفكار إلى أولادهن، إضافة إلى استمرار ظاهرة "الزواج" من الأجانب المقاتلين في "الحزب التركستاني" و"هيئة تحرير الشام".
6. انتشار لبس الثوب الأفغاني بين الرجال مع إطلاق اللحى، وارتداء نسبة كبيرة من النساء للنقاب في مناطق سيطرة هيئة تحرير الشام خاصة، بينما تقلّ هذه المظاهر مناطق درع الفرات وغصن الزيتون، إضافة إلى ازدياد لبس النقاب في عفرين على الرغم من وجود أعداد من النسوة غير المحجبات فيها.

وتشير الباحثة إلى أنّ هذه المظاهر بمعظمها بدأت بالتراجع في مناطق هيئة تحرير الشام، بينما تكاد تنعدم في مناطق درع الفرات وغصن الزيتون، إضافة إلى تزايد أعداد العاملات في سلك الشرطة فيهما، وإشراف شؤون الديانة التركية على نحو 110 مساجد فيهما، حيث يحظر فيها التطرق لأي موضوع يحثّ على التطرُّف أو الغلوّ[6].

كما تشير الباحثة إلى أن عدد المنقّبات في إدلب زاد زيادة كبيرةً في السنوات الأخيرة، مع وجود أعداد منهنّ كاشفات لوجوههن، حيث أكّدت أجوبتهن للاستبيانات المخصصة لهذه الدّراسة ذلك، فقد أجابت 47% من النِّساء المستطلعة آراؤهنّ أنَّهن يلبسن الحجاب فقط، بينما أجابت 47% من النِّساء بأنَّهن يلبس الحجاب والنِّقاب، 88% منهنّ اخترن ارتداء الحجاب أو النِّقاب بحريَّة دون أي ضغوط خارجيَّة، فيما أكّدت 12% منهنَّ أنّ ارتداءهن للنّقاب خاصَّة كان بسبب ضغوط اجتماعيَّة، فيما أجابت 6% بأنَّهن لا يلبسن الحجاب ولا النِّقاب، وتؤكّد "الورقة" على أن التقاليد الاجتماعية في إدلب لم تفلح كلُّ المحاولات الَّتي قامت بها التَّنظيمات المتطرِّفة في تغييرها.

د. الآثار الاجتماعيّة لفكر الغلو في الشمال السوري:

أشارت الورقة إلى العديد من الآثار الاجتماعية للتطرف في الشمال، بعضها عامٌ يتركّز حول الحالة النفسية والفكرية التي يعيشها المتطرف، فالمجتمعات التي ينتشر فيها الغلوّ تميل لرفض الحوار وانتشار التعصُّب فيها، كما أن مسيرة التنمية فيها تتعطّل بسبب توقف الإبداع لدى أفرادها جرّاء تعصبهم وعجزهم عن التفاعل مع الأحداث حولهم، إضافة إلى زيادة الاستقطاب في المجتمعات التي تعيش حالات ارتفاع التطرف، مما يؤجج الصراعات البينيّة في بنيته، فتسعى الفئات المختلفة لتغليب مصالحها الفئوية على المصلحة العامّة للمجتمع.

وعلى الرغم من تدافع المجتمع لرفض التطرف وآثاره إلا أن هناك آثارًا واضحة خلفتها سنيّ الحرب وانتشار مظاهر الغلوّ فيه، أهمّها:

1. التفكك المجتمعي والاستقطاب الفئويّ، بين مجموعات تؤيد الغلو وتسعى لفرضه بالقوة، وبين أطراف أخرى تدرك آثاره وتتصدّى للجهات الأولى.
2. رفض أعداد كبيرة من الناس التعامل مع الوافدين والمهجّرين إليهم، إضافة إلى عدم اندماج كثير من المتشددين "الغرباء" في المجتمعات الجديدة، مما دفع الطرفين إلى الانعزال عن بعضهما.
3. انتشار حالات التديّن الشكلي ومظاهره بالتوازي مع تراجع الالتزام على مستوى المضمون، مع وجود نسبةٍ متزايدة من الوعي الديني والفكريّ.
4. تقييد المجالات التي يمكن للمرأة المشاركة فيها، إضافة إلى ارتفاع نسبة إخضاع إرادتها للرجل في تحديد تحركاتها وتوجيهها، حيث بيّنت 53% من النّساء المشتركات بالاستطلاع أن ظروف مشاركاتهنّ

[6] وقد أكّد أحد المتحدّثين للباحثة بأنَّ انتشار مظاهر التديّن في الشمال السوري أمرٌ طبيعيٌّ، حيث إن الشعب السوري محافظ بطبعه، أمّا انتشار بعض مظاهر الغلوّ والتَطرُّف أثناء سيطرة تنظيم الدَّولة فذلك أمر طارئ ذهب بذهابهم.

تخضع في أحيان كثيرة لتقديرات الرَّجل المسؤول اجتماعيًّا عن المرأة أو لمزاجه الخاصّ، كما بيّن استطلاع الدراسة أنّ المجال المفتوح أمامها للمشاركة هو حلقات القرآن والتَّعليم بشكل رئيسيّ.

5. ازدياد حالة القلق وعدم الاستقرار نتيجة استغلال وجود بعض التنظيمات المتطرفة حجةً لقصف مناطق إدلب وما حولها، حيث نزح في الآونة الأخيرة أكثر من مليون شخص إلى الحدود السوريّة التركيّة.
6. تزايد حالات العنف الأسري والمجتمعيّ في الشمال، وعلى الرغم من أنّ أسباب العنف لا يمكن إرجاعها إلى التَّطرُّف فحسب، إلا أنه يعدّ سببا رئيسًا له، فلم تنكر 82% من النِّساء اللواتي تمّ استطلاع آراؤهنّ تعرّضهنّ للعنف أو إمكانيَّة احتمال وقوعه، بينما قالت 18% منهنّ فقط إنّهن لم يتعرّضنَّ له أو لا يمكن أن يتعرَّضن له.
7. انتشار الحالات الثأريّة بين العائلات الذين انتسبوا لتنظيم الدولة أو ممن يشتبه بكونه من خلاياها النائمة، وبين الناس التي فقدت أشخاصًا لها بسبب التنظيم، في ظل غياب الرقابة وإمكان التأكّد من هذه المعلومات.

هـ. أبرز النتائج والتوصيات:

اختتمت الباحثة د. رغداء زيدان ورقتها بعرض عدد من النتائج والتوصيات أهمُّها:

1. وجوب نشر الوعي الديني الصحيح للتخفيف من حدة الغلو والتطرّف، حيث إنه زيادة في الالتزام بالدين بطريقة غير مشروعة.
2. وجوب الانتباه إلى الفرق بين الغلو والتطرّف، وبين الوسائل التي يلجأ إليها لتطبيق بعض الأمور من جهة أخرى، حيث يمكن أن تكون القضيّة محقّة بينما يكون أسلوب تنفيذها متطرّفاً، إضافة إلى ذلك فإنه يجب التنبه إلى أن الوضع الاجتماعي في سورية غير مستقرّ، مما يدفع المجتمعات للبحث عن حماية ذواتها بإجراء أحكام وأساليب تبدو متطرفة.
3. أوصت الدراسة بالاهتمام بتعليم الأطفال وإفساح المجال أمامهم لإبداء الرأي وتشجيعهم على الحوار، إضافة إلى العمل على نشر الوعي الديني واستغلال المدارس والمنابر الوعظيّة لذلك، مع وجوب الاهتمام بالنساء وتقديم التعليم الشرعي الصحيح لهن، وإشراكهن في قضايا المجتمع لزيادة فاعليتهنّ وزيادة قدرتهنّ على الإبداع.
4. نشر ثقافة الحوار والعمل على عقد اللقاءات النقاشيّة التي تسمح بتداول الآراء في الشمال السوري ومناقشة الشبهات بعيدًا عن خطاب التخوين والتكفير والعمل على نشر ذلك بين الشباب في تلك المناطق.

مداخلات الحضور:

إثر انتهاء عرض الأوراق وتقديمها، فتحت إدارة الجلسة باب النقاش، وقُدّمت قرابة 25 مداخلة، لعل أهمها المداخلات الآتية:

1. تمحور تعقيب مفكر إسلامي بدايةً حول كون ظاهرة الخوارج ووجود الفكر الغالي أمرًا طبيعيًّا يستمرّ باستمرار التداول الفكري، وأحال ذلك إلى أنّ كل صحوة لها حمولتها من الغلاة، وممن يسيئون الفهم وينحرفون في التأويل، موضحاً بقوله: إنّ المفكّرين لم يبحثوا في عمق مسألة ظهور الفكر الغالي، على الرغم من الآثار المدمّرة التي خلفتها ظاهرة الغلو في الثورات العربية والمجتمعات الإسلاميّة، ومن هذا المنطلق فإنه يجب بحث مسببات مشكلة الغلوّ عند الأكثرية قبل الأقليّة، **لأن أوجهاً من مشكلة الغلو تنطلق من بيئة الأكثرية قبل ظهورها من الغلاة أساساً**، كما يشير إلى أن الغلوّ الفكريّ يسير في انحسارٍ على الرغم من حرص جهات عديدة على رفده وتعزيزه بطرقٍ مختلفة، بالتوازي مع زيادة دعم تطرّف الغلوّ التنظيميّ، وأكّد في مداخلته على ورقة د. رغداء زيدان على أن وجود عبارات عن تحريم الديمقراطية لا يدل على تغلغل معانيها أثرًا اجتماعيًّا، حيث إن هذه العبارات محمية بقوة سلاح الجماعات المتطرفة وهذا ضابط من ضوابط العمل البيروقراطي في أماكن سيطرة هذه التنظيمات، ولذا فإن الشعارات المنتشرة لا تدل على الآثار الاجتماعيّة حقيقة.
2. توجّه مدير لمركز أبحاث في مداخلته على ورقة د. مهدي الهلالي بالسؤال عن مدى العلاقة الوظيفية بين العشائر والتنظيمات الجهاديّة، وذلك لفهم المستغِلّ والمستغَلّ وعوامل هذا الاستغلال، ليتبيّن لنا السبب الذي دفع لنشأة هذه التنظيمات في الصحراء عادةً لا المدن؟ وقد أشار في مداخلته إلى أنه يجب التفكُّر في قضية "القابليّة للغلو" على نحو أعمق، أي دراسة الظروف التي تسمح بوجود الغلو وتوضيح آليات التعاطي مع آثار التطرُّف والمقولات التي تنتجهُ.
3. أشارت إحدى الباحثات في مداخلتها حول ورقة د. عماد الدين خيتي عن إمكان إسهام تحوّلات المتطرفين المعاصرين عن السابقين في دفعهم للانفصال عن سياقات التطرف، متسائلةً عن إمكان أن تؤثر هذه التغييرات داخل تنظيماتهم فتغيّر فكرهم وهم أمام طُرقٍ فكريّة جديدة، خاصّةً أن استخدام الدول لقادة الغلاة وظيفيًّا يكاد يكون واضحًا للعيان مما يدفع الأتباع للانفكاك عنهم.
4. بينما أشار أكاديمي وباحث متخصص بالحركات الإسلامية في مداخلته إلى أنّ الغلاة في سورية منقسمون على ثلاثة أصناف: أولها: الغلاة الوظيفيون الذين ينتسبون إلى أجهزة استخبارات ويأتمرون بأمرها، ثانيهم: الغلاة الصادقون في تطرفهم حيث يسعون لتشكيل تنظيم جديد يعمل على أن يحقق آراءهم ومبادئهم الأولى بمحض تغيير التنظيم الأوّل لمبادئه وسلوكيّاته، ثالثهم: غلاة عُزلوا من مناصبهم وخرجوا من نواة الإدارات المتحكّمة في التنظيمات التي انتموا إليها لخلافات مختلفة فانقلبوا على الغلوّ -لا إيمانًا برفضه وبطلانه- بحثًا عن سلطة جديدة ينضوون تحتها بغية أن تمنحهم الصلاحيات التي فقدوها، كما ركّز في مداخلته على أن أهم نقطة –برأيه- في الفرق بين الغلاة السابقين والمعاصرين هي قضية الصدق مع الفكرة، حيث إن الغلوّ المعاصر غير صادق مع نفسه كونه غلوًّا وظيفيًّا، أي أنّ الغلاة موظّفون، ويذكر أن التحولات المفاجئة التي جرت في الاقتتال بين الغلاة وبين العشائر في العراق أو الفصائل في سورية تشير إلى وجود أصابع الاستخبارات فيها حيث الدعم المالي والعسكري لهم واضح

وضوح النهار، ويؤكّد في هذا الإطار على أن الدول المحاربة للإرهاب هي من تصنّع الإرهاب، وهي التي تحاربُ محاربي الإرهاب، وذكر حادثة جرت مع أحد قادة الفصائل المسلحة السورية عندما قاتل تنظيم داعش في الغوطة، حيث تواصلت معه جهات استخباراتيّة مستغربة عن قتاله لهم، وقالوا له: "نحن من يقرر من يقاتِل ومتى يقاتِل" مما يثبت أن هذه الدول تصنع التنظيمات المتطرفة وستبقى متمدّدةً ما دعمتها هذه الأجهزة، ويشير إلى أنّ سايكس بيكو الفكرية متغلغلة في العقول قبل الواقع حيث إن العراق عاش تجربة التنظيمات المتطرفة قبلنا ولم يتعلم السوريون الدرس منها، ويخشى أن تنتقل العدوى إلى قطر آخر كمصر، فلا يتعلم المصريون المقموعين في الداخل الدرسَ من السوريين فيقعون في شر هذه التنظيمات كما حصل مع سابقيهم. وفي مداخلته على ورقة د. رغداء زيدان أشار الباحث نفسه إلى أن كثيرًا من النسوة تجد حريتها في التنظيمات المتطرفة، وهذا مناقض لبعض ما ورد في ورقة د. رغداء، ومثّل لذلك ب"إيمان البغا" التي امتلكت صولات وجولات في ظل دولة البغدادي إضافة إلى غيرها من المؤسسات النسائية التي تعمل في مناطق سيطرة هيئة تحرير الشام، وأكّد أيضًا أن آثارًا اجتماعيّة كبيرةً حدثت باسم الغلو كتكفير الآباء وقتلهم، وقطيعة الأرحام في الأسرة الواحدة، فبات الأخ يقتل أخاه لانتمائه لفصيل مخالف لفصيله، وقد أدّى هذا إلى ثارات عديدة في نسيج المجتمع السوري بدءًا من الأسرة وانتهاءً بالعشيرة، وأشار إلى أنّ كثيرًا من الصراعات التي حدثت في بعض المناطق -على الرغم من ظهورها على يدي فصيلين متشددين-، لم تكن في حقيقتها سوى صراعات ثأريّة لأسباب قديمة بين عائلات أو أحقاد عشائريّة سابقة.

5. وجّهت إحدى الباحثات سؤالًا حولَ كيفيّة تأثّر جماعات الغلو ببعضها خاصة تأثر "الغلو السني بالشيعي، والعكس بالعكس؟

6. تلا ذلك تعقيبٌ لمتخصص في الدراسات الإسلامية أشار فيه إلى أن بعض الجهات السنية تعاملت مع الغلو بمبدأ النفعية، فظهرت لدى مرجعياتٍ كثيرة فيهم آراء تدعو لترك الغلاة يواجهون الشيعة والعلمانيين على سبيل المثال، بينما غابت الشجاعة في تصنيف المتطرفين والتخلص منهم لدى أكثرهم من جهة أخرى، وهذا دفع الغلوّ إلى تسلّقه على سلّم المصداقيّة، فامتلك الغلاة تزكيات متعددة فبات يقال: هذا "تدمري" -نسبة الى سجن تدمر- وهذا "صيدناوي" -نسبة الى سجن صيدنايا- وهذا ترك الدنيا وجاء للجهاد في مقابل وصف العلماء السوريين بأنهم باعوا دينهم وآخرتهم وتخلفوا عن ركب الجهاد وانتقلوا إلى دول عديدة بعيدة عن الميدان، وهذا مما يؤثر في مصداقيّة علماء الشريعة، فتصبح مشاريعها في مهبّ الريح، كما ينجذب شبابهم في الوقت ذاته إلى الغلاة لعدم مجاراة المرجعيات لمصداقية الغلاة وأدواتهم.

7. أشار خبير في الجماعات الإسلامية في مداخلته إلى أنّ مسألة الغلو تحتاج إلى مقاربة عميقة من عدة زوايا تاريخية، وفكريّة، وشرعية بحيث يجب أن يكون المرء شجاعًا فيها بالاعتراف والإشارة إلى الأخطاء على ما هي عليه، وذكر أن بعض الناس في بدايات الثورة حذّروا من الغلوّ وطالبوا بإبادته قبل تطاول شرّه، فما كان من كثير من العلماء والمجاهدين إلا أن قالوا: كفّوا عن المهاجرين فإنهم إخواننا جاؤوا لنصرتنا، وكان اللقب الطاغي على مقاتلي داعش "أسود السنة"، إضافة إلى المقاربة النفسية والاجتماعية التي لم تأخذ حظّها من الإشارة، حيث إن قراءة التنظيمات قراءة استخباراتية لا تكفي،

بل إن أغلبية الشباب في هذه التنظيمات تنضم إليها وهي صادقة لأسباب متعددة، وهناك ما يشابه قصص انضمامهم ودوافعها لدى تنظيمات أخر أبرزها حزب العمّال الكردستاني، ومتمردو كوبا وغيرهم، حيث يعيش هؤلاء الثوار والمقاتلون حياة مشابهة لمقاتلي داعش وتلتقي أفكارهم وعواطفهم النفسية في محيط واحد، أمّا في الزاوية السياسية في الاستغلال الوظيفي من قبل أجهزة المخابرات للتنظيمات المتطرفة فذكر الخبير أن حزب الله فعل ذلك أيضًا حيث كانت قياداته تنبه مقاتليهم بمهاجمة كتائب الجيش الحر وبقية الفصائل وترك تنظيم داعش دون مواجهة، كما أشار إلى وجوب مواجهة التنظيمات المتطرفة بأساليب مبتكرة يقوم عليها متخصصون في الحقول التي تحتاجها كالإعلام والسياسة والتنمية.

8. كما أكّد أكاديمي وباحث في الشؤون الإسلامية في مداخلته على أهمية اختيار السبل التي يعالج بها الغلو، وضرورة تكاتف الجهود خاصة في المرجعية السنّية للتحذير من التطرف والغلو وآثارهما قبل أن تنفجر ساحات أخرى تسير في طريق الدماء كما حصل في سورية والعراق، وأشار إلى أن ورقة د. رغداء جديدة في ميدانها وتعتبر باكورة أعمال يجب البناء عليها، ويرى أنّ الآثار الاجتماعية سوف تزداد بسبب التشوّه الفكريّ والدعويّ، كما أنّ بناء المشروع السياسيّ المنشود للمسلمين متعذّر قبل بناء الإنسان في شتى المجالات، ومعالجة التشوه الذي طاله قبل البدء بأي مشروع سياسي وإداري.
9. أشار أكاديمي وباحث في شؤون الجماعات الإسلامية إلى عدة نقاط أهمّها، أنه لا بد من التنبيه إلى أننا متفقون على أن التطرف الداخلي أشدُّ خطراً من التطرف الخارجي، فعلى الرغم من أن التطرف الشيعي اكثر غلواً من التطرف السني، إلا أن أثر "الغلو السني (الداخلي)" كان أشد من ناحية التأثير الكارثي على السنة من التطرّف الخارجيّ، كما أن لدينا مشكلة في مواجهة فتاوى الآخر، سواء حَكَمَ علينا بالكفر أو استحلال الدم، إلا أننا نجد المرجعيات السنية في الوقت ذاته تخشى من إطلاق ذات الفتاوى أو أشباهها عليهم، وهذا مما يجب تجاوزه لدى المرجعيات العلمائية، ومثّل لذلك بما حدث في غزة التي قضت حماس فيها على رأس التطرف النابت منذ بدايته، بينما اقتصرت بقية المرجعيات السنية على السخرية والرد الفكري دون العمل على علاج الداخل وتحصينه، وأكّد أن مواجهة الغلو عسكريًّا يجب أن تكون آخر الحلول، حيث إنه حل ميداني مؤقت، بينما الحل الفكري هو الحلّ الأساسي... وفي تعقيبه على ورقة د. رغداء أشار إلى أن من الآثار الاجتماعية للغلو استسهال التكفير كتكفير الأب أو الابن أو الأستاذ، إضافة إلى الزواج بمجهولي الهويّة، ومشاركة الأطفال القصّر في القتال والاعتماد عليهم في العمليات الانتحاريّة والتجسس والاستطلاع، مؤكّدًا على ضرورة تعزيز مرجعيّة المجلس الإسلامي السوري في عقول الشباب ونفوسهم في الداخل والخارج لتمكينه من نشر جهوده في محاربة التطرف وفكره.
10. أشار أحد الباحثين إلى أن هناك ظواهر يفرزها الغلو اجتماعيًّا لم يُتعرَّض لها في الأوراق مثل رفض الانتظام بالقوانين البحتة بدعوى أنها ليست من الشريعة، كما طالب بالعمل على تشكيل صورة نمطية لغرسها في الأذهان بحيث تكون مذكّرًا مباشرًا عند رؤيتها بالغلو وذلك دون المساس بالرموز الدينية وشعائرها.

11. أشار عضو في هيئة سياسية للمعارضة السورية إلى أن الغلو قدّم نموذجًا للحكم، وقد بات يُنظر إلى هذا النموذج في العالم على أنه هو الحكم الإسلامي الطبيعي المتطرف، مما يسهّل إنشاء مشروعية دولية لاجتثاث أي نموذج إسلامي في الحكم، ومن ثمّ يتساءل: ما هي قدرتنا في المستقبل على تأسيس أحزاب دينية تمارس العمل السياسي؟
12. عقّب أحد الباحثين الشرعيين على ورقة د. رغداء بعدة نقاط منها سؤاله عن إمكان دراسة الحالة النفسية والاجتماعية لمن تحوّل عن الغلوّ ومقارنة أحوال هذا الشخص بين الغلو والاعتدال، وأكّد أنّ الآثار الاجتماعيّة التي ذكرها المداخلون، والتي سلّطت الدراسة الضوء عليها هي من الإنجازات الكبيرة التي تسعى جماعات الغلو لتحقيقها، وأشار إلى أن الغلو لا يُحلّ بالمشروع السياسي لعدم قناعة الغلاة بالعمل السياسي فقد رفضوا طاعة عليّ بن أبي طالب وهو من الخلفاء الراشدين.
13. أشارت باحثة في مركز سياسات في مداخلتها إلى أنه لا يمكن توسيع الشريحة في ورقة د. رغداء إلى هذه الدرجة من التعميم حيث إنّ المجتمعات المستطلَعَة مختلفة، سواء في إدلب وريف حلب الشرقي، وعفرين، إلخ... ولذا يفضّل تضييق مساحة شريحة الاستطلاع، وأكّدت أنّ تحولات المجتمع ليست مرتبطة بالإيديولوجيا قدر ارتباطها بالوضع اليومي الذي يفرض عليها، فلا يمكن إنتاج دراسة مجتمعية محكَمة في ظل عدم الاستقرار والقصف والموت اليومي، كما أنه لا يمكن عدُّ تغيّر الأوضاع السياسيّة -بخروج فصيل ودخول آخر يفرض أشياء معينة من اللباس والحجاب- دليلاً على التغيّر الاجتماعيّ، إضافة إلى تأكيدها على أهمية التعليم في مواجهة الغلوّ، إضافة إلى إشارتها لوجوب رصد الآثار النفسية للحرب على الشباب، خاصة أولئك الذين يقاتلون منذ سنوات عديدة.

ردود من أصحاب الأوراق:

ذكر د. مهدي الهلالي في معرض ردّه على ما قدّم إليه من استفسارات نقاطًا عديدة، أهمها الآتي:

1. معلوم أن مواجهة تنظيم القاعدة بدأت من العشائر، وبما أن مناطقهم مفتوحة على الصحراء، فإنها بعيدة عن المحاضن المدنية وغير محصنة معرفيًّا، ولذا فإن البيئة الاجتماعية فيها مختلفة عن المدن سواء من حيث موازين التفكير أو المعيشة أو الشبكات الاجتماعية، وبناء على ذلك لا بد من التنبّه إلى أن المرجعية في العشيرة عائدة لمن يملك سلطة القرار فيها –أي شيخ العشيرة- ولذا يستطيع الشيخ قيادة عشيرته إلى رفض الاتفاق مع أي طرف أو الانسياق معه، وتدرك التنظيمات المتطرفة هذه المواصفات في العشائر، لذا فقد كثر انتشارها في مناطق العشائر لأنها أسرع للميل إليها من أهل المدن، إضافة إلى أن شيوخ العشائر يكونون مع القوي عادةً، ومن يقدّمهم في السلطة.
2. يرى د. مهدي أن الساحات كلها تمتلك المغذّيات التي تساعد على نمو الغلو، مثل فشل الإسلاميين في مشروعاتهم، وحالة العدمية التي انتشرت بين الشباب إبان الكوارث التي حلّت في الربيع العربي، وعدم عثورهم على الإجابات المناسبة، إضافة إلى حالة الحرب والظلم والاضطهاد والتغيير الطائفي التي تتعرض لها مناطق السنة، كل هذا سيدفع آلافًا جديدة من الشباب للانضمام إلى التنظيمات المتطرفة كتنظيم الدولة المنتشر في صحراء العراق وبادية الشام.

3. أما التعامل مع الغلاة، فيرى د. مهدي أنهم طبقات، ويجب التعامل مع كل طبقة بأسلوب مختلف عن الأخرى، ويشير إلى أن في داعش آثار مترسبة من مذاهب وفرق أخرى، كإدعاء المظلومية دائمًا واتباع التقية، وتبرير الغدر والكذب باسم المصلحة، وهذا مما يشتهر وجوده عند فرقٍ من الباطنية.

أما د. عماد الدين خيتي فقد أشار إلى النقاط الآتية:

1. وجوب ضبط معنى الغلو والخارجيّة، فالغالي ليس خارجيًّا بالضرورة، كما أن الخارجيّ مغالٍ بالضرورة.
2. يمكن القول: إن للغلو موجات، فقد ينحسر وقتيًّا أو مكانيًّا، إلا أنه ليس بالضرورة أن يعني انحساره مكانيًّا انتهاءه فكريًّا.
3. أما اعتناق الغلوّ الفردي فإن ذلك يكون لأسباب عديدة، إلا أن جماعات الغلو ليست إلا عملاً استخباراتيًّا بحتًا –برأيه-، ومثّل لذلك بالفرق بين الإلحاد الشخصي وعملية صناعة الإلحاد.
4. يجيب د. عماد عن سؤال د. رغداء في "مدى تأدية الافتراقات التي في الغلو المعاصر عن السابق آثارًا قد تدفع أعضاءً كثرًا إلى جادة الصواب"، بالقول: إنه يجب التفريق بين عدة طبقات من الغلاة، ومثّل لذلك بأبي قتادة، فعلى الرغم من تراجعه عن أفكاره في الجزائر ثم في العراق ثم في سورية إلا أنه ما زال ينطلق من نفس العبارات ويحمل التطبيق ذاته لفكر الغلو الذي يقتنع به، ويرى د.عماد الدين خيتي من ثمّ أنه يندر أن تشفى الرؤوس الكبيرة بين المتطرفين من غلوّهم، إلا أننا نراهم يغيرون لباسهم ويلبسون لبوسا جديدًا ظاهريًّا، ويؤكّد أن بعضهم يخرج من أسلوب المواجهة ويميل إلى الخارجية الفكرية "اللا محاربة"، ويشير إلى أننا نرصد ميل الجيل الجديد من الغلاة إلى الاعتدال النسبي إلا أن ذلك لا يدفعهم –على سبيل المثال- لمعارضة مشايخهم في أيٍ من مقولاتهم التكفيرية العظمى وإن بني عليها استحلال للدماء، فيصف د. عماد هذا الصمت بأنه "غلوّ لا يخرج عن دائرة الخارجيّة"، وينبّه إلى أن بعض الغلاة يخرج من دائرة الغلو نهائيًّا، وهم قلّة، ويؤكد ههنا على وجوب أن لا ينخدع الناس بهم، فإن هذا مما جرّ علينا سابقًا مصائب كبرى، فتوبة بعض الرموز وتوسعهم في موضوعات أخرى غير العقيدة يجب أن لا تنسينا أصولهم التي كانوا عليها.

مركز الحوار السوري
Syrian Dialogue Center
sydialogue
www.sydialogue.com